قوقعة

مرت ثلاثة أيام مذ مضى الأصدقاء المرتحلون في طريقهم، وكان بعد أن خلّفوا وراءهم بستان القنادس؛ أن هجروا الأخضر لا لشيءٍ إلا ليلقَوا الأخضر مجدداً، فما إن ودّعوا البستان حتى قابلوا مروجاً خضراء لا تبصر أعينهم نهاية لها، وفي حين سرّهم المنظر وغاب ذهن كلّ واحدٍ منهم يتأمل جمال المنظر؛ إذ فوجئوا بخُلدٍ قد خرج من بين قدمي فاتِك فأفزعه، وهبَّ الماسيُّ بالوثوب عليه لولا أن تنبّه لأمر لبيبة التي يحملها فوق ظهره، ولوّح فاتك بذراعه الأيسر يريد أن ينال من الخُلد فلم يكن له ما أراد، إذ أن الخلد كان قد عاد فغاص في باطن الأرض مجدّداً.

فقال فاتك: «وددت لو أصبته، ذاك الأحمق»، قال الماسيّ: «وهممتُ بالانقضاضِ عليه، لكنني تنبّهتُ لحالي فطرحتُ الأمر جانباً مخافة أن أُسقِط لبيبة»، ضَحِكت لبيبة، ثم قالت: «مِن الجيّد أنك لم تتسرّع هذه المرة أيها الماسيّ، وإلا لكنتَ نلت من الذمّ ما لا تطيق أن تسمع، أنزِلني أيها الذئب، فقد تذكَّرت قِصةً فيها العبرة، تفيدُ الفرد وتنفعه فتنتفع بذاك الجماعة، فيستقي

الواحد من آثارها الحميدة؛ ما يروي به ظمأ نفسه العنيدة، فتلين وتستقيم، وتطفئ بنور ما بها من علمٍ ظُلمةَ عقله، فتطرد الجهل الذي لا يرحل لكن يرتحل، فتراه رفع أثقاله عن أمرٍ ووضعها فوق أمور أخرى، أما أثر الموعظة فيتجلّى في سلوك الجماعة بكل حال من الأحوال، فإن تأثر الفرد لوحده دون البقية ولم يتفشّى الأثر بين الجماعة بالكَلِم؛ فلا بد سيقتدي غير المتأثر بسلوك المتأثر عند إبصاره للفعل المُهذّب على يدي العبرة والموعظة، فيتهذّب بذاك سلوك الجماعة ويعتدل حالها.

فليبحث أحدكما عن مصدر ماءٍ عذب، أما الآخر فليبحث عما نأكله، فأما قاصد الماء فلا يرجعُ حتى ينال مراده فإننا دون الماء نهلك، وأما قاصد القوتِ فليبحث بجهد عظيم وصدق، فإن وجد مقصده فذلك ما نبغي، وإلا أكلنا جميعاً من هذا العشب سواءٌ أأحببتما ذلك أم لم تحباه، وأنا لن أبرح مكاني حتى تعودا، هيا اذهبا».

وضع الماسيُّ لبيبةَ من على ظهره، ثم اتَّفق وفاتك أن يبحث الذئب عن الطعام، ويبحث الدبُّ عن الماء، وانطلقا كُلٌّ يلاحق حاجة الجماعة تنفيذاً لأوامر السلحفاة، وانتظرت لبيبة وقتاً ظنّت بعده أن صديقاها لن يرجعا أبداً، وكان الفجر على وشك البزوغ، حتى رجعا وكُلٌّ واحدٍ قد أصاب ما طلب، فوجدت أن الدُّب قد عثر على نبع ماءٍ مختبئٍ بين الغابات، وقالت لبيبة

عندما علمت ببعد موقعه عنهم؛ «سنقصده على أي حال، فللضرورة أحكام، وإن كانت أحكاماً صعبة البلع وعسيرة الهضم، فلا بد من مجاراتها بكل الأحوال حتى تتغير الأحوال»، أما الذئب فقد اقتطع بأسنانه الحادة ثلاثة أغصان، الغصن الأول كان غصنَ توت، والثاني غصن تفاح، أما الثالث فغصن إجاص، حملها دفعة واحدة بين فكّيه، وكان الماسيّ ذئباً ضخم الحجم لا تتعبه مثل تلك الفعال.

وضع الذئب الأغصان على الأرض وأكل هو وصديقاه حتى لم يبقوا شيئاً من الثمار، ثم توجّهوا سويّة إلى حيث أرشدهم الدب، فوصلوا نبع الماء ورووا عطشهم بعد أن كاد الذئب يفقد صبره، فالدب قد شرب من النبع عندما وجده، والصبر شيمة السلحفاة وإن كانت تواجه خطر الموت عطشاً، أما الذئب فمتسرع بطبعه، مع أن صفاته كانت قد تأثرت شيئاً بما أثّرت في نفسه طِباعُ السلحفاة، لكن الأمر كان فوق طاقته. وأخيراً جلس الأصدقاء بقرب النبع ينتظرون أن تبدأ الحكاية.

قالت لبيبة: «إن القصة التي سأقصها عليكما لقصة وجيزة بليغة، فيها من التناقضات الكثير، فاسمحا لعقليكما بتقبُّل اختلاف الكلمة والرأي، وذاك يكون حتى وإن ارتأيتما الصواب في جانب؛ فحُقَّ للرأي الآخر أن يتم سماعه قبل إصدار الحكم

النهائي»، تبادل الماسيُّ وفاتكُ النظرات يتجهزان لسماع القصة، حتى أكملت لبيبة فقالت:

«يُحكى أنه وتحت أرضِ هذه المروج؛ عاشت أعداد كبيرة من المناجذ، فحفرت الجحور وشقّت الأنفاق وأخذت تلهوا هنا وهناك، تقضي معظم أوقاتها في جحورها أسفل الأرض وتخرج في أحيانٍ أخرى فوقها، باستثناء ما كان من أمر خُلدٍ وحيدٍ كان مذ وُلِد قد قضى كُلَّ ساعةٍ من حياته أسفل الأرض، ولم يخرج ولا لمرّة واحدة فوق السطح، فكان إذا أراد أن تلامس أشعة الشمس جسده؛ قصد تلّة كان قد صنعها ثم ردمها ردماً غير مكتمل، فتسرَّب من بين حبيبات التراب شعاع ضوء رفيع استقبله الخُلد في قعر الجحر بحنان، وتلة الخلد هي كومة التراب التي تكون مرئية فوق الأرض. أما سبب حُبِّ ذاك الخلد للعزلة؛ فهذا هو موضوع قِصّتنا.

في يومٍ ليس كبقية الأيام المتشابهة، بالنسبة للخلد بالطبع.. كانت فوق أنفاقه تمُرُّ سلحفاة، وكان اسمها فهيمة، كانت فهيمة قد نُفيت عن أرض السلاحف وهامت على وجهها، لا وطن يضمُّها بين ذراعيه ولا صديق يكفيها وحشة الارتحال، تمشي على غير هدىً في الأراضي الواسعة، حتى وصلت تلك المروج.

وبينما هي حائرة في أمرها ذاك، إذ سقطت في حفرة خلدٍ غير مدركة لذلك، لم تؤذِها السقطة، لكنها تألمت قليلاً، وأخذت عيناها بعض الوقت حتى تأقلمت مع الظلمة الحالكة من حولها،

فأبصرت النفق أمامها والذي بدى من منظورها طريقاً محفوفاً بالمخاطر، ثم نظرت لأعلى صوب الطريق الوحيد المؤدي للخارج من موقعها ذاك، ومع أن فكرتها بدت غير ممكنة بتاتاً؛ إلا أنها حاولت جاهدة التسلُّق لأعلى، مراراً وتكراراً، تتشبث بيديها وتدفع نفسها لأعلى، تتقدم خطوة أو اثنتين، لكنها تعود وتنزلق مجدداً إلى قعر الجحر.

أجهدت السلحفاة نفسها بالمحاولات عديمة الفائدة، فتوقفت عن فعلها ذاك، وأخذت تلتقط أنفاسها وتفكِّر في حلٍّ يُمكِّنها من الخروج من ذاك المأزق، لكنها خلصت في النهاية إلى أن تسلُّق النفق مستحيل، فلا أظافر لها كأظافر الخلد، والجزء السفلي من قوقعتها أملس يساعد على الانزلاق، وحتى سرعتها لا تفيد في الحصول على تسارع أوّلي جيد، ولذلك.. كان أن رأت أن عليها المشي في النفق المظلم لعلّها تجد مخرجاً، إذ لا حلَّ آخر أمامها، فكُلَّما انتظرت أكثر ازداد احتمال موتها جوعاً أو عطشاً... أو بطشاً.

بدأت السلحفاة بالمشي، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى قابلت أول مفترق طرق، فأبصرت إلى يمينها نفقاً وإلى شِمالها آخر، فتقدمت بدايةً إلى النفق على شِمالها فوجدت أن تربته متصلبة على نحوٍ يبدو وكأن أحداً لم يَمُرّ من خلاله منذ مدة، أما النفق إلى يمينها فقد كان التراب فيه مبعثراً متفرقاً لا يستوي صعيداً

منبسطاً، بل يشبه ما تُخلِّفه المناجذ وراءها بعد أن تقوم بحفر التربة، وبناءً على ما رأت السلحفاة؛ قررت أن تمشي يميناً.

استندت فهيمة إلى ما أدركت في اختيار طريق المسير، فمشت لبعض الوقت مارّة بعدة طرق ترتفع لأعلى، لكن تسلق أيٍّ منها كان أمراً مستحيلاً عليها، فأكملت طريقها تارةً يميناً وتارةً شمالاً، والتفّت هنا وهناك، وطال أمر ضياعها في المتاهة العجيبة.

حتى وصلت إلى نهايةٍ ستأخذها بالضرورة إلى أسفل، وكانت تلك مخاطرةً قررت أن تمضي السلحفاة قُدُماً بها، وكان ذلك لأن خُطّتها في تلك اللحظة قد تغيَّرت بعد أن أدركت شكل أنفاق المناجذ، فجميع المخارج عمودية يتم تسلُّقها لأعلى، ولا تتدرج كما كانت تطمح السلحفاة. فقررت أن تبحث عن الخلد صاحب الأنفاق فتُحدِّثه ليأخذها لأعلى مجدداً.

رمت فهيمة بنفسها في النفق فسقطت في جحر الخلد الذي كان نائماً في تلك اللحظة، فأيقظته بسقوطها وأفزعته فصرخ، قالت فهيمة: «اهدأ قليلاً، لا داعيَ للفزع، إنما أنا مجرَّد سلحفاة مسالمة، لا حيواناً متوحشاً»، لكن الخلد لم يطمَئِنَّ لها، فرفع مخالبه ووجّهها نحو السلحفاة مُهدِّداً إياها وقال: «لا أصدِّقك، لقد سمعت كثيراً عنكم أنتم مخلوقات السطح، سأمهلك دقيقة واحدة لتخرجي من هنا وإلا انقضضت عليكِ لأقتلك»، ضحكت فهيمة وقالت: «خلدٌ يقتل سلحفاة!! لا طاقة لك بذلك أيها الأبله، فأنا إن

اختبأت داخل قوقعتي فلا شيء يمكنه أن ينال مني مهما كان، وأنا أقصد بكلامي الثعالب الخبيثة والشريرة، أما أنت فلا تتجرّأ إلا على ديدان الأرض لتكون طعاماً لك، ثم إنني لو كنت أستطيع الخروج من هذه المتاهة؛ لفعلتُ ذلك دون الحاجة لسماع كلماتك عديمة الفائدة، ولا تخف، فإن أقصى أذىً يمكنني أن ألحِقه بك هو أن أموت هنا في جحرك، فأُعسِّر عليك عملية نقلي ودفني في مكانٍ ما، أو أُجبرك بذلك على نقل مكان عيشك إلى غيرِ مكان. إن اسمِيَ هو فهيمة، قُل لي ما اسمُك أيها الخلد؟».

شعر الخلد بشيء من الخوف يسري في جسده، وكان ذاك خوفاً من الغريب الذي لم يعرفه قبل ذلك، سلحفاة!! هو لم يقابل سابقاً سوى أشباهه من المناجذ، ولأن بصره ضعيفٌ جدّاً لم يستطع تمييز شكل السلحفاة جيّداً، فكان كل ما رأى هو طيف السلحفاة، فهاب ذلك الطيف وخافه، لكن صوتها الهادئَ الممتلئَ بالحكمة والرزانة؛ هدّأ من روعه قليلاً، وشيئاً فشيئاً ظهر على حقيقته فقال: «إذاً... لن تؤذيني أيتها الـ... سلحفاة!!»، وكان في صوته شيءٌ من البلاهة الممزوجة بالحذر الزائد، فضحكت فهيمة ثم قالت: «قلتُ لك لا أستطيع ذلك حتى لو أردت»، ابتسم الخُلد وأنزل مخالبه على الأرض، شعر بكثيرٍ من الراحة، لكنه ما زال متردّداً بشأن الزائر الغريب فقال: «اسمي هو هذّال، وأنا بالفعل سريع لكن لا بالسير بل بالحفر، ما الذي أتى بكِ إلى هنا

على أي حال؟»، أجابت فهيمة: «لقد سقطتُ في إحدى أنفاقك وأنا شارِدةُ الذهن أُفكِّرُ في أمرٍ ما، وما إن عدت إلى الواقع حتى وجدتني في قعر النفق»، ضحك هذّال قليلاً ثم تنّبه لأمرٍ ما فقال: «هذا غير ممكن!! أنا أغلق جميع نهايات أنفاقي وأردمها تماماً، هل أنت صغيرة الحجم إلى تلك الدرجة التي مكَّنتكِ من المرور من خلال التربة؟»، تعجَّبت السلحفاة مما سمعت، فقالت: «أتهزَأ بي يا هذّال؟ إن حجمي مثل حجمك، لكن كما يبدو أن أحد الحيوانات قد نبش ذاك المخرج لعلّه يجدك فيصطادك، وأغلب الظنِّ أنه وبعد أن يئس من إمساكك قد ذهب بعيداً مخلِّفاً تلّة النفق مفتوحة، ولذلك سقطت أنا فيها»، اقشعرَّ جسد الخلد خوفاً، وقال بصوت متقطّع يملَؤه الاضطراب؛ «حيوانٌ قد.. نبش التلة... إنني على حقٍّ دائماً.. الأنفاق هي الأمان المطلق، لا شيء يمكنه أن ينال منِّي هنا»، وتكوَّر على نفسه لعلَّ رعشة الخوفِ تنفضُّ عنه.

وبينما هو في حالته تلك إذ قالت فهيمة: «ما بك؟ ألم يحاول مهاجمتك حيوانٌ قبل الساعة؟ وما حكاية حجمي الذي لم تعرفه سابقاً؟ ألم تقابل سلحفاة من قبل؟ أو تسمع عنّا قبل الساعة؟»، استجمع هذّال قِواه حتى عاد لحالته الأولى، ثم قال: «لا، لم أتعرَّض لهجومٍ مباشر من أيّ حيوان قط، ثم إنني لا أسخرُ منكِ يا فهيمة، لكنني لا أرى جيّداً فلا أبصر ملامح الأشياء أو أحجامها، فأعتمد على غريزتي للنجاة، فأحفر بها، وبها اتتبع

ديدان الأرض لآكلها، أو اقترب شيئاً من السطح فآكل جذور بعض النباتات اللذيذة، لكنني لم أخرج سابقاً إلى السطح، ولذلك لم أقابل سوى بني جنسي من المناجذ، هل حقّاً حجمكِ مثل حجمي؟»، صمتت فهيمة هنيهة، ثم قالت: «نعم، ولربما أنا أكبر بقليل منك، هذا وإن حجمي لصغير في أرض السلاحف. لقد سمعتُ أن المناجذ لا ترى بوضوح لكن لم أكن أعلم أن الأمر بهذا السوء. لكن... إن أمرك غريب يا هذّال، لمَ لمْ تخرُج سابقاً إلى سطح الأرض؟ إن الأرض واسعة وتستحقُّ استكشافها»، هَمْهَمَ الخلد شيئاً ثم قال: «لا.. لا.. لا أخرج ولن أخرج، إنني أجد في أنفاقي السكينة والراحة، فأنا هنا في مأمنٍ من تلك الحيوانات التي يقولون أنها متوحشة، تأكل كلَّ شيء، هنا لا أحد يعرف مكاني، وحتى لو عرفوا لا يمكنهم الدخول إلى أنفاقي، وإن تمكّنوا من ذلك فسأهرب لأنشئ أنفاقاً أخرى متشعبة فلا يعرف أحدٌ لي طريقاً، هذه هي الجنّة يا فهيمة».

لم يَزِد كلام هذّالٍ فهيمةَ إلا حيرة وتعجُّباً، فقالت: «لكنك لا تعرف شيئاً عن العالم الخارجي، لا تعرف من فيه، ولا ما فيه، لم تَمُرَّ بالحقول الخضراء والمروج الشاسعة والغابات المثمرة، لم تشرب من مياه الينابيع وعيون الماء والأنهار الجارية، لم تسبح في بحارٍ ولا في محيطات، أنتَ لم تقابل حيواناتٍ غير المناجذ!! على الأرضِ كُلٌّ ونقيضه، الخير والشر، الليل والنهار، الصديق والعدو، الحسنُ والقبيح... إن أنت لم تُخاطر

لتعرِف؛ فستبقى جاهلاً بالأرض التي وجدت عليها، وذاك لن يضُرَّ أحداً في شيء، بل سيضرُّكَ أنت، صحيح أن الوحوش تملأ الأرض، لكن لطالما فاقهم الطيبون عدداً، إنها حياة لا تستحق أن تتشبث بها بمخالبك ذاك التشبث، بل تتعلَّق في أحيان، وتتخلّى في أحيانٍ أخرى».

صمت الخلد يُفكِّر فيما سمع من كلمات، ثم أخيراً قال: «إن الواحد منّا إذا مات؛ فلن يعود إلى الحياة يا فهيمة، فما فائدة البحث عن الخير؛ إن كان لا يعلم الفردُ أخيرٌ سيجد أم شر، فهو إن وجد الخير غَنِم، وإن فُجِع بالشرِّ انتهى أمره وانقضى أجله، ولم أسمع في يومٍ عن ميّتٍ عاد للحياة فتجنّب أخطاءه فنجا، وإنما نتّقي الشرور ومنابعها وكُلَّ طريقٍ يحتمل أن تسلكه؛ حتى ولو خالطها شيء من الخير، فالنجاة هي الغنيمة الكبرى، ولا غنيمة تساويها في القيمة، وأرضيَ هذه التي لا أترُك ولا أهجُر هي الجنّة الآمِنة، فمن ذاك الأحمق الذي يخرج من الجنة بداعِ الفضول وحبُّ الاستكشاف؟».

أغضبت الكلمات فهيمة، فقالت: «ليست الحياة هكذا، فإن لكلِّ أمرٍ ثمنه، وثمن العيشِ هو المخاطرة، فإن أنتَ سلّمتَ بوضعك هذا تختبئ تحت الأرض طوال حياتك؛ فلن تعرف يوماً ما كان على الأرض التي تدّعي بأنك تسكن، وما الجنّة مصطلحٌ يتغير من منظور لآخر؛ بل إنها مصطلحٌ واحد يتّفق الجميع على أنه مكانٌ يحوي كُلَّ النِّعم، لا شرورَ فيها ولا ظلم ولا خوف،

والعدل صعيدها المستوي، والسعادة الأبدية بنيانها، والخلود هو ثمرتها الأشهى، أرضُ الأماني المُجابة والمعجزاتِ المحقّقة، وذاك لا يوجد على هذه الأرض. ثمَّ ماذا إذا انتهت الحياة؟ هل تقول بأنك تعيش حياة تستحقُّ المحافظة عليها من كل الشرور؟ فلذلك أنت تعمل على إحاطة نفسك بكل ما يبعث في صدرك على الشعور بالأمان.. وتُبعِد عن مسكنك الأخطار حتى تقول بأن ما تعيشه هو حقّاً.. حياة، لكن الحقيقة أنك تعيش تحت الأرض لا يدري أحدٌ بشأنك، فإن أنت عشت أو مِتَّ لن يأبه لذلك أحد، فلا عائلة ولا أصدقاء، لا رحلة تخوض ولا مستقرٌّ يسرُّ الأنظار، لا حلم تطارد ولا ممتلَكٌ تقِرُّ عينك به فتقنع نفسك بأنك قدمت تضحياتٍ لهدف وغاية ومرادٍ نلت.. لِمَ كُلُّ هذا الحرص على حياةٍ لا تساوي شيئاً؟».

قال هذّال وقد اعتراه الغضب: «لا تتدخلي في شؤوني يا فهيمة، وتذكّري أنتِ في مسكني الآن، أرجوكِ تحلِّ بشيءٍ من الاحترام لهذا الأمر على الأقل، عودي فارتدي أخلاقكِ التي نزعتِ بكلماتكِ تلك، أنا أعيش كما أريد، لا كما تظنّينَ أنتِ أنني يجب أن أعيش، هكذا أشعر بالراحة التامّة، ليس شأن السلاحف ما أفعل وكيف أصنع، أما الجنّة فليست ما تبصر العيون، بل ما تشعر به القلوب، وقلبي يشعر بأنني في الجنّة، أنام مطمئن البال في وئامٍ مع البيئة التي تحيط بي، إذا ما جعت أخرج فأصطاد ديدان الأرض أو أقضِمُ جذور النباتات، في الشتاء إذا هاجمني

البرد ألزَمُ جحري وأكسوه بجذور الأعشاب أو بالأعشاب نفسها إذا ما تمكنت من نزعها، فيَحل الدفء في بيتي ويطوّقُ حياتي بأكملها، أما في الصيف فإن الأنفاق تتيح للرياح الجريان فتنعش روحي، إذا ما أردت ضوء الشمس تمكّنت من استراق شعاع نورٍ في تلّةٍ لم أُتِمَّ ردمها، اتّقي في جحري وحشة الليالي المظلمة، ومكر صِباحٍ متلوّنة، وأعداءً لا أريد أن يطالني شرُّهم، وأصدقاء أنا بِغنىً عن خيرهم، وكُلُّ ما علي أن أفعل هو أن ألزم جحري هذا، فلا ضرر يطالني ولا خير يصيبني، وذاك هو الفوز»، قالت فهيمة سريعاً: «كيف أقنعك أن في الحياة ليالٍ مؤنسة، وصِباحاً مشرقة، وشرٌّ يُدفع، وخير يُقصد، وعدوٌّ يُتّقى، وصديقٌ يفتدى، وأن فيها ما يستحق أن تشعر بالبرد أو الحرِّ أو الخوف لأجله، فتتحمل المشقّة لتدرك الغاية»، ردَّ هذّال فقال: «هذا رأيُكِ، وقد قلتُ أنا ما عندي».

شعرت السلحفاة بخيبة الأمل، فقالت: «كما تريد، ليس شأني.. ساعدني الآن في الخروج من هنا فقد ضقت ذرعاً، وأظنُّ أنك تريد نفس الأمر، حتى تعود لتعيش براحة وطمأنينة وسلام، لكن اعلم أيها الجاهل أن قوقعة السلحفاة لهي عالمٌ رَحِبٌ عظيم السعة مقارنة بقوقعتك الضيّقة التي تسميها حياة وتفاخر بها»، وردَّ الخُلدُ بالإيجاب على إخراج السلحفاة من منزله وأعرض عن بقية الكلمات، واتّفقَ مع فهيمة أن تصعد هي فوق ظهره وتتشبث جيّداً ويصعد بها النفق، حتى يصل نقطة قريبة من

المدخل فتدفع هي بنفسها خارج المكان، لأن صاحِب الأنفاقِ لا يخرج ولا يُطِلُّ برأسه من حفرته خشية أن يبصر ما لا يطيق من نور، فقد اعتادت عيناه الظلمة، وألِفها عقله.

»

قال فاتك: «صحيحٌ أن صاحبنا كان منغلقاً على نفسه أيما انغلاق، وأن جهله وخوفه من العالم الغريب منعاه من اكتشافه؛ إلا أنني أرى أن تلك حياته، هو حرٌّ بها، يعيشها أو لا يفعل فهذا أمرٌ يرجع إليه، وكذلك من حق أيٍّ كان أن يُطلِق لقب الجنّة على ما يشعر بأنه جنّة، لا على ما يتفق جميع من على الأرض أنها جنّة»، ضَحِك الماسيُّ ضحكته المعتادة، ثم قال: «ماذا تقول يا فاتك؟ لولا امتلاكك عقلاً يسمح لك بالمخاطرة؛ لكنت أنت والخلد في هذه القصة سواء، فقد كنتَ تعيش في كهفك لا تغادره إلا للضرورة القصوى، تكره محيطك وكُلَّ ما فيه، ترفض الحياة وتنتظر أجلكَ أن يحين، حتى سمعت اقتراح لبيبة وقبلت به، وإن كنت لم تتغير كثيراً.. إلا أن رِضاك باعتناق النور؛ منع الظلام من اعتصارك وحياتك التي كنتَ تسميها حياة، أليس كذلك؟»، ضحك فاتكُ مما سمع، ثم قال: «معك حقٌّ أيها الماسي، إن تلك لعين الحقيقة، إنني مُنفتحٌ على جميع الاحتمالات وعديدِ الخيارات، إنني مَرِنٌ حتى في أمورٍ لا تقبل

المرونة»، قال الماسيّ: «ليس هذا ما كنتُ أعنيه...» وتبادل الاثنان ضحكاتٍ تردّدت أصداؤها في المكان.

قالت لبيبة: «لن أعلِّق على القصة لأن أحد طرفيها من بني جنسي، ولربما في صدري من ذاك الأمر شيء، فإذا تكلمت انحزتُ غير مدركة إلى جانب السلحفاة كما انحزت إليه لربما في سردي للقصة، فاعذراني إن أنا فعلت. سأحجم عن إبداء رأيي وسأترك الأمر بينكما، هل يريدُ أحدكما أن يقول شعراً بهذه المناسبة؟ فلا أستطيع أن أفعل ذلك أيضاً»، قال فاتك: «أنا لست منحازاً لأي طرفٍ في تلك القصّة، لذلك لست أملك ما أقول»، قالت لبيبة: «ماذا عنك أيها الماسيّ، أَتُحسِن قول الشعر؟»، ضَحِك الماسيُّ مجدداً ضحكته التي يغلفها الشرُّ بغير إرادته، ثم قال: «ألم تعلمي أيتها الحكيمة؛ أن عواء الذئاب قديماً كان في الحقيقة أشعاراً؟ كانوا يلقونها على مسامع الأشجار في الظلمة تحت نور البدر المكتمل، فيلقي الأول بيتاً من الشعر فيردُّ عليه آخرُ ببيتٍ ثانٍ، وهكذا يقول كُلُّ ذئبٍ بيتاً بدوره، حتى يُتمّوا قصيدة، أو يحول بينهم وبين ذلك طلوع الفجر. كانت أياماً جميلة لم أكن محظوظاً كفاية لأعيشها، وعلى أي حال سأعلِّمكما الآن كيف تقولان الشعر كما ينبغي، استمعا جيِّداً...

ماذا نملك في دنيانا غير الأرزاقِ لنقتفي

نلهث خلف القوتِ ولكن ما لكَ سيكون وإن خَفِيَ
ستطال نصيبك لا ريب فتجلّد إن عيشُكَ شَقِيَ

ويرينا الدهر برغبته ما أمسَكَ عنّا بحكمته
في وقتٍ يختاره وِفقَ تدبيرٍ صاغَ بحنكته
فما كانَ، قد كانَ لأمرٍ والآتِ يُهابُ لوقعته

وليس يضرُّكَ وجهُ الشرِّ فذاك صريحٌ بنواياه
ويدفعُ عنك قليلُ المكرِ كثيرَ الخبث وكُلَّ أذاه
لكن كيف تجابه أحمقَ عَبَدَ الجهل وآخَ أخاه

إن الرأي لهذا وذاك في أمرٍ يقبل آراءً
في شأنٍ لا يعطى شأناً يتطاير والريح هباءً
قَدرُ الجاهِل لا يقترب مِن مَن مَلَكَ العلم كساءً

ما حاجتك بأمنٍ زائف إن لم يحمي ثرواتك
وثرواتك لو تجمع أجمع أنفاسٌ تلفظ لاءاتك
فغداً تلفظ آخر لاءٍ وبندمٍ تلقى هفواتك

اقصِد دوماً كوناً أكبر في الأرض أراضٍ خلّابة
بإرادة صلبٍ مِقدامٍ تظهر تتجلّى البوابة
وينقشع ظلامٌ غطّاك وألبسك حياةً كِذّابا

»

قال الماسيّ: «ها؟ ما رأيكما فيما سمعتما؟»، تبادلت السلحفاة النظرات مع فاتك، ثم قالت: «إن هذا لكلامٌ جميل حسن، لكنه متقلب القافية لا اتزان فيه، وكذلك سيكون جميلاً لو طبّقت كلماتك قبل أن تحوّلها إلى موعظة، لكنه الشعر على أي حال. لن أكذب عليك.. لقد أحببت كلامك»، قال فاتك: «وأنا أحببته

كذلك»، أطلق الماسيّ ضحكته بصوت عالٍ، ثم قال عندما فرغ من الضحك؛ «لقد قلت لكما؛ إن الشعر يجري في عروقي، سأُسمِعُكما لاحقاً شعراً متّزن القافية كما تحبّان، ذلك ليس بأمر يصعب علي»، ثم عاد يضحك مجدداً.

وقد قرر الأصدقاء في تلك الساعة أن يبيتوا ليلتهم تلك حيث كانوا يجلسون، ثم سيتابعون المسير عندما يُطِلُّ عليهم أول شعاعٍ تبعثه الشمس عند شروقها.

النهاية

Facebook: www.facebook.com/amerdpov

Instagram: @amerdpov